مقدمات

تعريف علم الأخلاق . موضوعه ، تقسيمه إلى نظرى وعملى ، غايته ، مكانته من الفلسفة

جرت العادة على أن يُقَدَّم بين يدى كل علم يطلب تحصيله تعريفه ، وموضوعه . والغرض منه ونسبته إلى غيره من العلوم ليكون طالبه على بصيرة فى طلبه . فأنت إذا تصورت العلم أولا بتعريفه فقد أحطت به احاطة إجمالية باعتبار أمر شامل له يضبطه ويميزه عما عداه . وإذا عرفت موضوعه فقد ميزته عن باقى العلوم . وبفائدته تدفع عن نفسك عبث الشروع فى شىء لا ترى منه فائدته . وإذا ربطت العلم بغيره من العلوم التى تمت إليه بصلة النَّسب فإنك تكون قد أنَرْتَ لنفسك طريق الوصول إليه فتمشى فيه على بينة وبصيرة .

التعريف :

كلمة أخلاق جمع خلق بضمتين كعُنُق وأعنـــاق ، أو بضم فسكون كصُلْب وأصلاب . ولا تكسر على غير ذلك ، يعنى أنها ليست من الكلمات التى تكسر على صور مختلفة ككلمة جمل مثلا فأنها تجمع جمع تكسير على اجمال ، وجمال ، وجُمْل ، وَجِماله ، وجمالات ، وأجامِل ، وجمائل ، وجامل .

وردت فى القرآن الكريم : « وإنك لعلى خلق عظيم » . وفى السنه : « بعثت لأتمم مكارم الأخلاق » ، و « أكمل المؤمنين إيمانا أحسنهم خلقاً »

و « ليس شيء فى الميزان أثقل من حسن الخلق » . وجرت على ألسنة العرب من ذلك قول سالم بن وابصه :

يا أيها المتحلى غير مشيمته إن التخلق يأتى دونه الخلق

وتطلق لفة على الطبع ، والسجيه ، والعادة ، والمروءة ، والدين .

فسرها ابن عباس بالدين فى قوله تعالى : « وإنك لعلى خلق عظيم » وورد عن سعيد بن هشام قال : « أتيت عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها فقلت : أخبرينى عن خلق رسول الله فقالت : كان خلقه القرآن أما تقرأ : « وإنك لعلى خلق عظيم » ويروى كان خلقه سجية أى طبيعة من غير تكلف .

وإذا كانت كتب اللغة تطلق الخلق على الطبع وعلى السجية ، فهل هناك فرق بين المدلولين أم هما من الألفاظ المترادفة ؟

يظهر أن هناك فرقا بينهما . وهو أن الطبيعة تطلق على الخلق الفطرى فالطبع بالسكون هو « الجبلة التى خلق الإنسان عليها » . والسجية تطلق على الفطرى وعلى المكتسب إذا أصبح عادة . ولعل قول حسان ابن ثابت مما يؤيد ذلك :

سجية تلك منهم غير مُحدثة إن الخلائق فاعلم شرها البدع

فالسجية قد تكون محدثة وقد تكون غير محدثة كما يظهر فى هذا البيت .

والخلق للصورة الباطنة بمنزلة الخلق للصورة الظاهرة ولكلٍّ أوصاف حسنة وقبيحة .

والثواب والعقاب يتعلقان بأوصاف الصورة الباطنة أكثر مما يتعلقان

بأوصاف الصورة الظاهرة ، ولهـــذا تكررت الأحاديث فى مدح حسن الخلق .

والتخلق تكلف إظهار ما ليس فى الفطرة . يقال : « فلان يتخلق بغير خلقة أى يتكلفه » وفى حديث عمر رضى الله عنه : « من تخلق للناس بما يعلم الله أنه ليس من نفسه شانه الله » . . وفى هذا معنى الغش ، وإلا فمطلوب أن تخالق كل صنف بأخلاقهم . . — أى أن تعامل الناس على قدر عقولهم — يقول الغزالى ـ فى كتابه « الأربعين فى أصول الدين » ـ أثناء كلامه على الأصل الثامن فى القيام بحقوق المسلمين وحسن الصحبة معهم وكيفية المعاشرة مع عموم الخلق يقول : « منها أن تخالق كل صنف بأخلاقهم فلا تلتمس من الجاهل والغبى ما تلتمس من العالم الورع » .

ويروى عن داود عليه السلام أنه قال : « إلاهى ! كيف لى أن يحبنى الناس وأسلم فيما بينى وبينك ؟ » فأوحى الله إليه : « خالق أهل الدنيا بأخلاق الدنيا ، وخالق أهل الآخرة بأخلاق الآخرة » .

ويروى عن حذيفة بن اليمان رضى الله عنه أن قال : « خالص المؤمن ، وخالق الفاجر » وهذه الكلمة تفسرها كلمة الغزالى المتقدمة .

فالتخلق أول خطوة فى طريق اكتساب الأخلاق ، فما على الذين يشعرون بنقص فى أخلاقهم إلا أن يتخلقوا بالأخلاق الفاضلة فلا يلبث الأمر ـ إن أخلصوا ـ أن يصبح لهم خلقا .

ولسنا هنا بصدد الكلام على الخلق وما يتصل بها فسيفرد ببحث خاص يأتى بعد . إنما نحن بصدد تعريف « علم الأخلاق » وقد عرفنا شيئاً عن

المضاف إليه — الأخلاق — فى اللغة ، فلنعرف بعد ذلك شيئاً عن مدلول كلمة « علم » توطئة لتعريف « علم الأخلاق » فى اصطلاح الأخلاقيين .

وهذا الاستطراد وإن كان يضايق بعض القراء إلا أنا نأتى به خدمة لطالب الأزهر ، وإذا اضطرنا البحث إلى أن نسوق له تعريفاً لمطلق العلم ، أو لنظرية المعرفة فليس معنى هذا أننا سنطرقها على وجه التفصيل فنتكلم على مسائلها عند القدماء وعلى ماجد منها عند المحدثين كالعلاقة بين الذات والموضوع إلى ما هنالك من قبل ومن بعد أن يوضع هذا البحث فى صورة العلم المستقل بل يكفى هنا أن نعرف — كما أشرنا — كلمة عن مدلول مطلق العلم .

للأشيا وجود فى الأعيان ، ووجود فى الأذهان ، ووجود فى اللسان فالوجود فى الأعيان هو الوجود الأصلى الحقيقى ، والوجود فى الأذهان هو الوجود العلمى الصورى . والوجود فى اللسان هو الوجود اللفظى الدليلى .

فما هو هذا الموجود فى الأذهان ؟

اختلف فى مدلوله : أما الحكماء فيقولون : « هو حصول صورة الشىء فى العقل » وغيرهم يقول : « هو الاعتقاد الجازم المطابق للواقع » أو هو « إدراك الشىء على ماهو به » — الأدراك هو تمثيل حقيقة الشىء وحده من غير حكم عليه بنفى أو إثبات ويسمى تصورا ، ومع الحكم بأحدهما ويسمى تصديقا — .

ويختار صاحب المواقف من تعريفات مطلق العلم هذا التعريف : « صفة — أى أمر قائم بغيره — توجب لمحلها — وهو موصوفها — تميزاً بين المعانى لا يحتمل النقيض » .

والمعانى خصت بالأمور العقلية كلية كانت أو جزئية إذ المراد بها مايقابل العينية الخارجية التى تدرك باحدى الحواس الخمس فيخرج إذا عن حد العلم إدراك الحواس الظاهرة لأنه يفيد تمييزاً فى الأمور العينية .

ومن يرى ـ كالشيخ الأشعرى ـ أن إدراك الحواس الظاهرة من قبيل العلم يطرح هذا القيد فيقول : « صفة توجب لمحلها تمييزاً لايحتمل النقيض »

ويقول شارح المقاصد فى مباحث العلم : « والحق أن إطلاق العلم على الإحساس مخالف للعرف واللغة ، فانه اسم لغيره من الادراكات . ويؤيده أن البهائم ليست من أولى العلم فى شىء .

وإذا كان هذا التعريف المختار لايرى إدراك الحواس الظاهرة من قبيل العلم فإنه أيضاً يخرج الظن[1] ، والشك[2] ، والوهم[3] ، والتقليد[4] بقوله : « لا يحتمل النقيض » فإن متعلق التمييز الحاصل فيها — أى فى الظن والشك . . . الخ — يحتمل نقيضه بلا خفاء . ومحصل هذا التعريف أن العلم

---

(١) الظن هو الاعتقاد الراجح مع احتمال النقيض ، ويستعمل فى اليقين والشك . وقيل الظن أحد طرفى الشك بصفة الرجحان .

(٢) الشك هو التردد بين النقيضين بلا ترجيح لأحدهما على الآخر عند الشاك ، وقيل الشك ما أستوى طرفاه وهو الوقوف بين الشيئين لا يميل القلب إلى أحدهما ، فأذا ترجح أحدهما ولم يطرح الآخر فهو ظن فإذا طرحه فهو غالب الظن وهو بمنزلة اليقين .

(٣) والوهم : هو أدراك المعنى الجزئى المتعلق بالمعنى المحسوس .

(٤) والتقليد : هو قبول قول الغير بلا حجه ولا دليل .

صفة تقوم بموصوف هو العالم ، وتتعلق هذه الصفة بمتعلق هو الماهية المتصورة فى التصور والطرفان فى التصديق ، وتوجب تلك الصفة - إيجاباً عادياً كون محلها أى العالم مميزاً للمتعلق تمييزاً لا يحتمل ذلك المتعلق نقيض ذلك التمييز .

فأنت إذا أعطيتنا صورة لشيء لا يحتمل النقيض ، أو حكمت على شيء حكما لا يحتمله كذلك فأنت بذلك عليم .

وإذا كان العلم مطلقاً : « هو صفة تقوم بالعالم فتجعله يميز بين المعانى تمييزاً لا يحتمل النقيض » فما هو العلم مقيداً بالإضافة إلى الأخلاق ؟

تشعبت الآراء واختلفت فى المدلول الاصطلاحى لهذا العلم ، وقبل أن نجمع بعض التعاريف ونضعها موضع البحث لننفذ منها إلى التعريف المرتضى نقدم لذلك بمقدمتين اثنتين :

ما هو الحد ؟

الحد هو المقصود بما يحصره ويحيط به إحاطة تمنع أن يدخل فيه ماليس منه ، أو يخرج منه ما هو منه .

والمقصود الذى نريد حصره بالحد ها هنا ، أو الذى نريد أن نضرب عليه سورا بحيث يمنع هذا السور من أن يدخل فيه ما ليس منه أو يخرج منه ما هو منه

هذا المقصود هو موضوعات ومباحث علم الأخلاق ، فهو يبحث مثلا فى الباعث والمقصد ، وفى الخير وفى الشر ، والحق ، والواجب ، ويبحث

فى الضمير الإنسانى ، وفى السعادة الإنسانية وفى المثل الأعلى وكيف نحصل عليه . وفى الشروط التى يجب توافرها فى الإرادة الإنسانية وفى الأفعال الإنسانية لتصبح موضوعا لأحكامنا الأخلاقية عليها إلى آخر ما يبحث فيه علم الأخلاق .

وعلى هذا فالذين يعرفون علم الأخلاق بأنه « علم الإنسان » أو « علم الخير والشر » أو « علم الواجب والواجبات » كل هؤلاء لم يجدوا المقصود بما يحصره ويحيط به إحاطة تمنع أن يدخل فيه ما ليس منه أو يخرج منه ماهو منه . فمثلا « علم الإنسان » هذا التعريف يدخل كل العلوم المتعلقة بالانسان سواء من الناحية الجسمانية أم من الناحية المعنوية فيدخل « علم التشريح » و « علم وظائف الأعضاء » و « علم الكيمياء الحيوية » ويدخل « علم النفس » و « علم المنطق » و « علم الجمال و « فلسفة التاريخ » و « فلسفة القانون » إلى غير ذلك من العلوم التى تبحث فى الانسان فهو تعريف غير مانع

وإذا كان هذا التعريف يدخل فى المقصود ماليس منه ، فان هذه التعاريف الأخرى المذكورة تخرج من المقصود ماهو منه . وتستطيع أن تنقدها بالرجوع إلى موضوعات ومباحث علم الأخلاق

والتعريف الذى تختاره دائرة المعارف للعلم « بطرس البستانى » هو : « علم بالفضائل وكيفية اقتنائها ليتحلى الانسان بها . وبالرذائل وكيفية توقيها ليتخلى عنها »

لكن : هل هذا التعريف حد أو رسم ؟

أذكر أن فضيلة « شيخ الكلية » زارنى فى الدرس مرة ، وكان موضوعه « تعريف علم الأخلاق » وبعد أن استمع إلىّ . سأل الطلاب هذا السؤال .

وتذكرنى هذه الاستطرادات بالثقافة الأزهرية القديمة ، أو بطريق الدرس فى الأزهر القديم ، فقد كان يتجرد عن كثير من « السطحية » إلى ميدان النشاط العميق فكنت ترى « الشيخ » يعرض للمسألة فيدخل إلى غورها من مناحيها المختلفة . من ناحية « النحو » و « الصرف » و « البلاغة » وما إلى ذلك مما يمكن أن يدخل فى نطاقها من بحث . فتعود الطالبَ هذه الطريقة نفوذاً إلى لب الأمور .

وبهذه المناسبة أسجل شهادة لأستاذنا الجليل أحمد لطفى السيد فقد سمعته مرة يقول : « إن العقل الأزهرى إذا مسته العلوم الحديثة كان أقوى عقل ، واستشهد بـ « سعد زغلول » و « طه حسين »

وما ذلك إلا لتنشئته على « الدقة » فى الفهم ، وتعويده أن يكون « فقيه النفس » .

ويكفى هنا أن أقول : إن هذا التعريف رسم لا حد ، وليس التعريف بالحد من مقدمات الشروع .

موضوعه :

موضوع كل علم ما يبحث فيه عن عوارضه الذاتية كبدن الإنسان لعلم الطب، فانه يبحث فيه عن أحواله من حيث الصحة والمرض، وكالكلمات لعلم النحو، فانه يبحث فيه عن أحوالها من حيث الإعراب والبناء، وكالمعلوم لعلم الكلام من حيث أنه يتعلق به إثبات العقائد الدينية تعلقا قريبا أو بعيداً.

وبالموضوع تتمايز العلوم، نعم تتمايز العلوم أيضا بالتعريف. لكن الامتياز الحاصل بالموضوع تميز بحسب الذات، والحاصل بالتعريف تميز بحسب المفهوم، والتميز بحسب الذات راجح زائد فى نفسه على التميز بحسب المفهوم.

« وبعد » فما موضوع علم الأخلاق ؟

نُقدم لذلك بكلمة عن « الأخلاقية » أو بعبارة أخرى عن الحكم الأدبي على الفعل الإنسانى بالخير أو بالشر، وذلك يستلزم أن نقول: هناك:

١ — قاض يحكم.

٢ — ودستورٌ يُحكم به.

٣ — ومحل يقع عليه، أو يتعلق به هذا الحكم فما هو هذا الدستور، أو هذه المبادىء ؟

يقول « بارتلمى سانتهلير » فى كتاب الأخلاق لأرسطوطاليس ترجمة أستاذنا الجليل مربى الجيلين وعميد الفلسفة فى الشرق أحمد لطفى السيد يقول :

« ومن النادر أن يقع إجماع الآراء على طريقة بسط مذهب »

« بعينه مهما أجيدت ومهما بلغت من الحق . ولكن من الأفعال »
« ما هو مقر عليه عند جميع الناس وبيّن أن هذا الإقرار العام »
« سببه أن هذه الأفعال تابعة لمبادىء مسلمة عند الجميع وتقع »
« الأفعال على مقتضاها من حيث لا يشعر الفاعل لها فى أغلب »
« الأحيان . فالبحث عن هذه المبادىء . وترتيبها . واستنباطها . »
« وتبيين كل حقيقتها . وكل أهميتها العملية وبيان الواجبات التى »
« توجبها على الإنسان بجميع النتائج التى تترتب عليها هذا هو »
« موضوع علم الاخلاق .

فما هى هذه المبادىء العامة المسلمة عند جميع الناس والتى تقع أفعال الإنسان على مقتضاها من حيث لايشعر الفاعل لها فى أغلب الأحيان . والتى عليها يدور موضوع علم الأخلاق ؟

أهى السنن الكونية الطبيعية كسنن الجاذبية ، والنور ، والحرارة ؟

كلا : فهذه السنن الطبيعية وإن كانت عامة ثابتة مسلمة عند الناس جميعهم إلا أنها خارجة عن إرادتنا فليس فى وسعك أن تُبدل الصيف بالشتاء ، ولا أن تجعل التفاحة حين تنفصل من الشجرة ترتفع إلى أعلى بدل أن تسقط إلى أسفل .

إذن فما هى ؟

أهى هذه القوانين التى تفرضها الدولة لمصلحة المواطنين تنظم بها علاقات الناس المشتركة المتبادلة بينهم فى هذه الحياة ؟

كلا : فهذه القوانين وإن تعلقت إرادتنا بها إلا أنها غير عامة وغير

ثابته وغير مسلمة عند جميع الناس . بل تختلف باختلاف الزمان والمكان . وهى فى بلاد غيرها فى الأخرى . وهى اليوم غيرها بالأمس .

إذن فما هى هذه المبادىء العامة المسلمة عند جميع الناس والتى تقع أفعالنا على مقتضاها من حيث لا يشعر الفاعل لها فى أغلب الأحيان . والتى عليها يدور موضع علم الأخلاق ؟

إنها شريعة الحق والواجب وهى شريعة عامة ثابتة صالحة لكل زمان ومكان ، فالحق واحد لا يختلف فيه إثنان ، وإن حصل خلاف بين الناس فأنما هو خلاف فى فهم الحق لا فى الحق ذاته .

ومعنى كونها عامة أنها موجودة فى كل الضمائر ، وإن اختلفت قوة وضعفا ، ومعنى كونها ثابتة أنها غير متغيرة بل هى صالحة لكل زمان ومكان . فالإنسان قادر بفطرته على أن يميز بضميره صواب الأمر من خطئه مباشرة بلا ملاحظة ولا خبرة ولا تعليم ، وعلى هذا تكون قواعد السلوك ، أو دستور الأخلاق ظاهرة الصدق والصواب ظهوراً مباشراً ومن العمل عليها تكون الفضيلة .

وشريعة الإسلام تشير إلى هذا . فقد ورد أن رسول الله صلوات الله عليه قال لوابصة بن معبد : « جئت تسأل عن البر ؟ قال : نعم قال : البر ما اطمأنت إليه النفس واطمأن إليه القلب . والأثم ما حاك فى النفس وتردد فى الصدر وإن أفتاك الناس وأفتوك .

إن هذا المبدأ أو هذا القانون ليس من وضعنا بل هو قانون فى ضمائرنا يناجى عقولنا ولكنه ليس إيانا . أنت لا تستطيع أن تنكره ولا أن تلزمه

الصمت ولكنك تستطيع أن تخالف نصائحها الحقة القوية مادامت لك إرادة حرة

ومن هنا نشأت المسئولية فأنت بمقتضى هذه الشريعة شريعة الحق والواجب مسئول أخلاقياً عن أعمالك جميعها من ألفها إلى يائها مسئول لا أمام القضاء فى دور المحاكم بل أمام ضميرك وفى قرارة نفسك .

لكن : متى تكون مسئولا ؟

تكون مسئولا ما دمت حرا مختاراً .

فموضوع علم الأخلاق إذن هو أفعال الإنسان الاختيارية .

خرج بذلك أفعال الحيوانات ، وما يصدر عن النفس الإنسانية من الأفعال التى ليس للإرادة دخل فيها ولا اختيار . ويصدق ذلك على :

١ — الأفعال اللا إرادية كحركات القلب والرئتين والأوعية الدموية وأجهزة الإفراز فهذه أعمال آلية لادخل لإرادتك ولا لتفكيرك فيها فلست عنها بمسئول .

٢ — والأعمال المنعكسة وهى تلك الأعمال الصادرة عن قوة تحول الآثار الواردة إلى آثار صادرة من غيران يكون للمخ دخل فى شىء منها وهى كثيرة : منها رمش العين حين تأثرها فجأة بضوء شديد . ومنها فزع الإنسان وجفوله عند سماعه صوتاً فجائياً . ومنها سرعة انقباض الأيدى عند ملامستها جسما ساخناً إلى ما هنالك من هذه الأعمال .

والنخاع الشوكى والمستطيل كلاهما مركز لتلك الأعمال المنعكسة الكثيرة التى تصدر عنا فى كل لحظة من لحظات اليقظة والنوم ونحن عنها غافلون .

فلست بمسئول عن هذه الأعمال ـ اللا إرادية والمنعكسة ـ كما لا تسأل عن جمالك أو بشاعتك ، ولا عن ذكائك أو غباوتك ، ولا عن مولد ليس لك فيه اختيار .

ويُلحق بالأعمال الأرادية أعمال وإن كانت إرادتك لم تتعلق بها إلا أنك كنت تستطيع معها سلامة الأسباب . وتسمى « الشبه الإرادية وإليك أمثلة توضحها : ـ

١ ـ حفرت حفرة فى طريق عام ونسيت أن تميزها بما يدل على وجود خطر فيها فجاءت سيارة أو جاء إنسان فارتطم فى هذه الحفرة فجرح أو مات فأنت مسئول . لماذا ؟ لأنك كنت تستطيع لها الحيطة فترفع عليها شارة حمراء أو ما يدل على وجود خطر فيها .

٢ ـ رأيت إنسانا أعمى يقود نفسه سيقع فى خطر أمامه فقمت مسرعا لتنقذه فعثرت بشىء فى طريقك فأتلفته فأنت كذلك مسئول .

وعلى ذلك فكل إنسان لا يبذل جهده فى شىء يتولاه لا يسمى رجلا طيباً فى نظر الأخلاق .

وهذا ما دعا « كارليل » إلى أن يقول عن نجار كان يشتغل فى منزله « إنه كان يخالف جميع الوصايا العشر فى كل دقة من دقات قدومه » لكن هل الحكم الخلقى يلحق الأفعال لذاتها أو يلحقها باعتبار الباعث عليها والمقصود منها ؟

الأفعال فى ذاتها ليست لها صفة أدبية ، وإنما ينظر إليها من حيث الباعث ، أو بعبارة أخرى كما يقول المصطفى صلوات الله عليه : « إنما

الأعمال بالنيات ، فإن كانت النية خيراً فالفعل خير ولو أدى إلى شر ، وإن كانت النية شراً فالفعل شر ولو أدى إلى خير .

وإذا كان الحكم الأخلاقى يدور مع النية فما حكمه فى نية الشر بلا عمل ؟

نية الخير بلا عمل طاعة يثاب عليها بلا خلاف بين العلماء ، وأما نية الشر بلا عمل ففى حكمها غموض وإشكال لتعارض الأدلة من الكتاب والسنة ، والقياس ، واختلاف الأئمة ، فلنحرر أولا محل النزاع ثم ننقل الخلاف مع الأدلة ثم نعين ماهو الحق .

الخواطر التى ترد على القلب ثلاثة أقسام :

١ — قسم يرد بلا اختيار للعبد ولا قبول منه وهذا لا يدخل تحت التكليف بالاتفاق . فلا يثاب عليه إن كان خيراً لعدم النية والاختيار . ولا يؤاخذ عليه إن كان شراً لقوله تعالى : « لا يكلف الله نفساً إلا وسعها » .

٢ — وقسم هو اعتقاد الكفر أو البدعة ويؤاخذ العبد به بلا خلاف .

٣ — ما يرد على القلب مع اختيار العبد وقبوله ، ولكن لا يعمل به ولا يظهر أثره على الجوارح أصلا لمانع ، فإن كان خيراً يثاب عليه لما مر . وإن كان شراً كقتل مؤمن بلا حق ، أو زنا ، أو شرب خمر ، أو غير ذلك ، فإن كان المانع الخوف من الله مع القدرة عليه وارتفاع المانع لا يؤاخذ به أيضاً بلا خلاف بل يكتب له حسنة . وإن كان المانع غير ذلك أى غير الخوف من الله كالحياء من الناس أو الخوف منهم أو الرياء . فقال بعضهم : لا يؤاخذ به أيضاً لقوله عز وجل : « لها ما كسبت وعليها

ما اكتسبت » ولقوله صلوات الله عليه : « إن الله تجاوز عن أمتي ما حدثت به أنفسها ما لم تتكلم أو تعمل به » .

وقال بعضهم يؤاخذ لقوله تعالى : « وإن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله » وقوله : « إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا » وقوله : « لا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم — أن يحلف بناء على ظنه — ولكن يؤاخذكم بما كسبت قلوبكم » .

ولقوله صلوات الله عليه « إذا التقا المسلمان بسيفهما فالقاتل والمقتول في النار » قيل يارسول الله هذا القاتل فما بال المقتول؟ قال : « لأنه أراد قتل صاحبه » ، وهذا نص على أنه صار من أهل النار بمجرد الإرادة .

وحمل الغزالي الأحاديث الدالة على العفو على القسم الأول من الخواطر . وأول ما يرد على القلب :

١ — الخاطر وهو حديث النفس ، ثم يليه :

٢ — ميل الطبع وهذا يتولد من الخاطر الأول . ثم يليه :

٣ — حكم القلب بأن هذا ينبغي أن يفعل فإن الطبع إذا مال لم تنبعث النية والهمة ما لم تندفع الصوارف فإنه قد يمنعه حياء أو خوف ، وهو على كل حال حكم من جهة العقل ويسمى هذا اعتقاداً وهو يتبع الخاطر والميل.

ويأتي بعد ذلك :

٤ — تصميم العزم وجزم النية فيه وهذا يسمى هما بالفعل ونية وقصداً، وربما يندم بعد الجزم فيترك العمل ، وربما يعوقه عائق فيتعذر عليه العمل .

فهذه أربعة أحوال للقلب قبل العمل . أما الخاطر فلا يؤاخذ به لأنه

لا يدخل تحت الاختيار ، وكذلك الميل وهيجان الشهوة لأنهما لا يدخلان أيضاً تحت الاختيار وهما المرادان بقوله عليه السلام : « عفى عن أمتى ما حدثت به أنفسها » فحديث النفس عبارة عن الخواطر التى تهجس فى النفس — الهاجس الخاطر يقال هجس فى صدرى شىء أى حدث ووقع — ولا يتبعها عزم الفعل ، فأما العزم والهم فلا يسميان حديث نفس .

والحق أن ما يرد على القلب من خواطر الشر إن قبله العبد واستحسنه ولم ينكره ولم يكرهه وكان قوياً بحيث يحمله على مباشرة الأسباب والدواعى فهو عزم مصمم مؤاخذ عليه (١).

---

(١) نبراس العقول الذكية شرح الأربعين حديثا النبويه تأليف السيد محمد ابن مصطفى الأفكرمانى طبعه مطبعة التمدن الصناعية بمصر .

obeikandl.com